



شهادة الأنبياء

عليهم السلام

سلسلة دروس في فكر الشهيد الصدر قدس سره



الإعداد والخراط المكتبة
www.almaaref.org



مركز نون
للتاتييف والترجمة

شهادة الأنبياء

عليهم السلام

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
بيروت . لبنان . المعهودة . الشارع العام
هاتف: ٢٤/٤٧١٠٧٠ - ص.ب. ٥٢/٢٢٧٠٢٥



الإعداد والإخراج الإلكتروني
www.almaaref.org

اسم الكتاب: شهادة الأنبياء

إعداد: مركزنون للتأليف والترجمة

نشر: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية

الطبعة الأولى: شباط ٢٠١١ م / ١٤٣٢ هـ

جميع الحقوق محفوظة

شهادة الأنبياء

عليهم السلام

دروس من فكر الشهيد

السيد محمد باقر الصدر

مكتبة نور مجتبى التأليف والترجمة

الإعداد والإخراج الإلكتروني
www.almaaref.org



المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على الرسول المصطفى محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

إن من مبادئ الإسلام الثابتة مبدأ (الخلافة العامة)، المرتكز على أساس الإيمان بأن الله تعالى هو المالك الحقيقي والوحيد للكون وما فيه من ثروات، وأنه سبحانه وتعالى قد جعل المجتمع التوحيدية المتناسق والمتوافي يرتكز على خطدين ربانيين رئيسين:

الخطأ الأول: خلافة الإنسان على الأرض - سنتعرّض له من خلال هذا البحث - حيث استحق الإنسان شرف هذه الخلافة لأن الاستخلاف يعني الإحساس بالمسؤولية وتحمّل الأمانة، والإنسان هو الكائن الأرضي المتميّز بالإحساس بالمسؤولية، ولديه القدرة على التصرّف في الأمانة - التي يتحمّلها - وفقاً لأوامر الله الذي استخلفه على الكون وائتمنه على كلّ ما يحويه من خيرات وطبيّبات.

الخطأ الثاني: شهادة الأنبياء ﷺ ودورهم التربوي والثقافي في هداية المجتمع التوحيدية - والذي سوف نتعرّض له في بحث لاحق - الذي تُشكّل خلافة الإنسان فيه حجر الزاوية، ويأتي دور الأئمة ﷺ عقب الأنبياء ﷺ للمحافظة على رسالة الإسلام وصونها من التحرير والضياع.

أمّا في عصر غيبة الموصوم ﷺ، فإنّ من يتحمّل مسؤولية الإرشاد والتبلیغ الديني للمجتمع التوحيدية هم الفقهاء والعلماء ورثة الأنبياء والأولياء، بحيث يقومون بالواجب الشرعي الملقي على عاتقهم في توجيه المجتمع وتوعيته وتنقيته على ضوء القيم السامية للإسلام العظيم.

ولقد رسم الإسلام هدفاً عاماً لمسار خلافة الإنسان على الأرض، يقوم على أساس اعتبار الخير والعدل والقوة، وهو في حركة لا توقف أبداً؛ لأنّها متّجّهة نحو المطلق، وأيّ هدف آخر لهذا المسار سوى المطلق - الله سبحانه وتعالى - سوف يكون هدفاً محدوداً، وبالتالي سوف يُجمّد الحركة ويوقف عملية النمو في خلافة الإنسان.

لذا على الجماعة التي تحمل مسؤولية أمانة الخلافة، أن توفر لهذه الحركة الدائبة نحو هدفها المطلق والكبير كل الشروط الموضوعية، وتحقيق لها منهاجاً اللازم، وتصوّغ العلاقات الاجتماعية على أساس الرؤية القرآنية - كما سيأتي توضيحيها في طيات هذه الدراسة - للخلافة الربانية.

وعلى ضوء ذلك قام مركز نون للتّأليف والترجمة باختيار هذه الدراسة - التي يبيّن يدي القاريء العزيز - من كلمات الشهيد الصدر، حيث تم تهذيبها وتشذيبها من بعض المكرّرات، مع التصرّف البسيط بانعارة بغية المحافظة قدر الإمكان على عبارة الشهيد، هذا إلى جانب إضافة بعض العناوين للفقرات والمواضيع، وإعادة ترتيب بعض الأبحاث المتّرامبة، وجمعها في بحث واحد.

لذا تعدّ هذه الدراسة تلخيصاً لدراسة الشهيد السيد محمد باقر الصدر (رضوان الله عليه)، والتي قدّم فيها أطروحته حول بناء الدولة الإسلامية المعاصرة. وقد نشرت هذه الدراسة ضمن كتاب (الإسلام يقود الحياة)، وهو من منشورات دار التعارف، بيروت - لبنان، طبع في العام (٢٠٠٢هـ / ١٤٢٤م).

مركز نون للتّأليف والترجمة

الأهداف

- ١ - التعرّف إلى مفهوم خطّ الشهادة في القرآن وأصنافها ودورها.
- ٢ - التعرّف إلى الفوارق بين أدوار الشهادة.
- ٣ - التعرّف إلى طبيعة الاندماج بين خطّي الخلافة والشهادة.

مفهوم خط الشهادة في القرآن:

وضع الله سبحانه إلى جانب خط الخلافة - خلافة الإنسان على الأرض - خط الشهادة، الذي يُمثل التدخل الرباني من أجل صيانة الإنسان الخليفة من الانحراف، وتوجيهه نحو أهداف الخلافة الرشيدة، فالله تعالى يعلم ما توسوس به نفس الإنسان، وما تزخر به من إمكانات ومشاعر، وما يتأثر به من مغريات وشهوات، وما يُصاب به من ألوان الضعف والانحلال، وإذا ترك الإنسان ليمارس دوره في الخلافة بدون توجيه وهدى كان خلقه عبثاً، ومجرد تكريس للنزوارات، والشهوات، وألوان الاستغلال.

وما لم يحصل تدخل رباني - من خلال خط الشهادة - لهداية الإنسان الخليفة في مسيره، فإنه سوف يخسر كل الأهداف الكبيرة التي رسمت له في بداية الطريق. قال

تعالى: «وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّتِي كُنْتُ أَنَّ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا»^(١).

أصناف الشهداء:

صنف القرآن الكريم الشهداء إلى ثلاثة أصناف، فقال:
«إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحُكُّمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّهِ مَا هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتُخْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاء»^(٢).

والأصناف الثلاثة على ضوء هذه الآية الكريمة، هم:
أ - النبيّون والرسول.

ب - الرّبّانيّون؛ أي الأئمّة الذين يُعتبرون امتداداً رّبّانياً للنبي في هذا الخطّ.

ج - الأخبار؛ أي علماء الشريعة والفقهاة الذين يُعتبرون امتداداً رشيداً للنبي والإمام في خطّ الشهادة.

الدور المشترك بين أصناف الشهداء:

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

يتمثل الدور المشترك بين الأصناف الثلاثة من الشهداء فيما يلي:

أولاً: استيعاب الرسالة السماوية والحفاظ عليها، قال تعالى: **﴿بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاء﴾**^(١).

ثانياً: الإشراف على ممارسة الإنسان لدوره في الخلافة، ومسؤولية إعطاء التوجيه بالقدر الذي يتصل بالرسالة وأحكامها ومفاهيمها.

ثالثاً: التدخل لمقاومة الانحراف، واتخاذ كل التدابير الممكنة من أجل سلامه المسيرة.

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٤.

الفوارق بين الأصناف الثلاثة في أداء دور الشهادة:

بالرغم من وجود المحتوى المشترك لدور الشهداء بأصنافهم الثلاثة (الأنبياء - الأنئمة - العلماء)، إلا أنه توجد فروق جوهرية فيما بينهم في طريقة أداء هذا الدور، وهي كالتالي:

الفرق الأول: أن النبي هو حامل الرسالة من السماء باختيار الله تعالى له؛ بينما الإمام هو المستودع للرسالة الربانية، أما العالم فهو الإنسان الذي اكتسب من خلال جهد بشري ومعاناة طويلة الأمد. استيعاباً حياً، وشاملاً، ومتحركاً للإسلام ومصادره، وورعاً عميقاً يرّوض نفسه عليه حتى يُصبح قوة تتحكم في كل وجوده وسلوكه، ووعياً إسلامياً رشيداً للواقع وما يزخر به من ظروف وملابسات ليكون شهيداً عليه.

الفرق الثاني: يُعتبر العالم أو المرجع مقاماً يمكن اكتسابه بالعمل الجاد المخلص لله سبحانه، خلافاً للنبوة

والإمامية فإنّهما رابطان ربّانيّتان بين الله تعالى والإنسان النبيّ أو الإنسان الإمام، ولا يمكن اكتساب هذه الرابطة بالسعي والجهد والترويض.

الفرق الثالث: يُعتبر النبيّ والإمام معينين من الله تعالى تعيننا شخصياً، وأمّا المرجع العالم فهو معين تعيننا نوعياً؛ أي إنّ الإسلام حدّد الشروط العامة للمرجع العالم، وترك أمر التعين والتأكد من انطباق الشروط إلى الأمة نفسها.

الفرق الرابع: أنّ الفرد يرتبط بالنبيّ ارتباطاً دينياً، والرجوع إليه فيأخذ أحكام الله تعالى عن طريقه يجعل منه مسلماً بالنبيّ، وكذلك الحال بالنسبة لارتباط الفرد بالإمام. بينما ارتباط الفرد بالمرجع الفقيه. على النحو المذكور منه. يُعتبر ارتباط مقلّد بمرجعه.

الفرق الخامس: أنّ النبيّ أو الإمام يجب أن يكون معصوماً، بينما المرجعية الدينية عهد ربّانيٍ إلى الخطّ لا إلى الشخص المرجع العالم؛ أي إنّ المرجع محدّد تحديداً نوعياً لا شخصياً. وليس الشخص هو طرف التعاقد مع الله،

بل المركز أي المرجعية الدينية (كمواصفات عامة)، ومن هذه الموصفات (العدالة) بدرجة عالية تقرب من العصمة. فقد جاء في الحديث عن الإمام العسكري عليه السلام قوله: «فَأَمَّا مِنْ كَانَ مِنَ الْفُقَهَاءِ صَائِنًا لِنَفْسِهِ، حَافِظًا لِدِينِهِ، مُخَالِفًا لِهَوَاهُ، مُطِيعًا لِأَمْرِ مَوْلَاهُ فَلِلْعَوَامِ أَنْ يُقْلِدُوهُ»^(١).

ولكنَّ هذه العدالة ليس من الضروري أن تبلغ درجة العصمة، ولا أن يكون المرجع الديني مصوناً من الخطأ بحال من الأحوال. ومن هنا كان هو بنوره بحاجة إلى شهيد ومقياس موضوعي. قال تعالى: «لَيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ»^(٢).

إذا المراد (بالعدالة) هو الوسطية والاعتدال في السلوك، وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لَتُكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ»^(٣)،

(١) وسائل الشيعة، ج ٢١٨، باب (١١) من أبواب القضاء، ص ٩٤.

(٢) سورة الحج، الآية: ٧٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

هذا بالإضافة إلى ضرورة توفر شروط أخرى في الشهيد العالم والمرجع، وذلك من قبيل:

- ١ - العلم والاستيعاب الجيد للقرآن والسنة.
- ٢ - امتلاك الوعي والإدراك لظروف وأحوال الواقع القائم.
- ٣ - توفر الكفاءة والجدارة النفسية التي ترتبط بالحكمة والتعقل، والصبر والشجاعة.
- ٤ - القدرة على تجاوز المحن والمصائب بقلب صابر وفي مرضاة الله تعالى^(١).

الاندماج بين خطى الخلافة والشهادة :

لقد تعرضنا حتى الآن إلى المعالم العامة للخطين الرئيسيين، خط الخلافة (خلافة الإنسان على الأرض)، وخط الشهادة (شهادة النبي أو الإمام أو المرجع). وهذا

(١) قال تعالى: «إِنَّمَا يُمْسِكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مُّثُلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ تُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلَيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَ مِنْكُمْ شُهَدَاءُهُ» (سورة آل عمران، الآية: ١٤٠).

الخطّان يندمجان في بعض مراحلهما ويتجسدان في محور واحد يُمثّل الخلافة والشهادة معاً، وهذا ما سنتناوله من خلال عرض موجز لمراحل مسار الخلافة الربّانية على الأرض منذ خلق نبّي الله آدم عليه السلام، مروراً بمرحلة الأنبياء والأئمّة عليهم السلام، وصولاً إلى مرحلة العلماء والمراجع.

أولاً: المرحلة التمهيدية لدور الخلافة:

لقد قدر لآدم عليه السلام أن يكون الممثل الأول للإنسانية التي استخلفها الله تعالى على الأرض، ولكن حينما بدأ آدم حياته في الدنيا لم يمرّ بمرحلة الطفولة، واحتضانه ضمن عائلة ترعاه حتى يرشد ويُصبح خليفة الله على الأرض، كما هو حال كل إنسان آخر، بل كان آدم بحاجة إلى دار حضانة استثنائية يجد فيها التنمية والتوعية التي تؤهله لممارسة دور الخلافة على الأرض، سواء من ناحية فهم الحياة ومشاكلها المادية، أو من ناحية مسؤولياتها الخلقيّة والروحية.

وقد عبر القرآن الكريم عن دار الحضانة الاستثنائية التي وُفرت للإنسان الأول بـ(الجنة)، إذ حقّ الله تعالى في

هذه الجنينة لآدم وحواء كلّ وسائل الاستقرار وكفل لهما كلّ الحاجات: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾^(١).

وكان لا بدّ من مرور فترة تتموفيها تجربة هذين الإنسانيين (آدم وحواء)، وتصل إلى الدرجة التي تتيح لهما أن يبدئا خلافهما في الأرض، وكذلك كان لا بدّ في هذه الفترة من تربية الإحساس الخلقي، وزرع الشعور بالمسؤولية وتعميقه في نفس الإنسان، وذلك عن طريق امتحانه بما يُوجّه إليه من تكاليف وأوامر. وكان أول تكليف وجّه إليه أن يمسك عن شجرة معينة في تلك الجنينة، ترويضاً للإنسان الخليفة على التحكّم في نزواته، وهي لا ينساق مع الحرث المحموم على المزيد من زينة الحياة الدنيا ومتاعها وطيباتها؛ لأنّ هذا الحرث أساس كلّ ما شهدته مسرح الحياة. بعد ذلك من ألوان استغلال الإنسان للإنسان.

(١) سورة طه، الآية: ١١٨.

وقد استطاعت (المعصية)^(١) التي ارتكبها آدم عليهما السلام بتناوله من الشجرة المحرّمة، أن تحدث هزة روحية كبيرة في نفسه، وتُفجّر في أعماقه الإحساس بالمسؤولية من خلال مشاعر الندم، وطفق في هذه اللحظة يخصّص من ورق الجنة ليضعه على جسده ولি�واري سوأته ويستغفر الله تعالى لذنبه.

وبهذا تكامل وعيه عليهما السلام في الوقت الذي كانت قد نضجت لديه خبرات الحياة المتنوعة، وتعلّم الأسماء كلّها فحان الوقت لخروجه من الجنة إلى الأرض التي استُخلف عليها ليُمارس مسيرته نحو الله من خلال دوره في الخلافة.

ثانياً: مرحلة الفطرة من الخلافة:

لقد بدأت الجماعة البشرية خلافتها على الأرض

(١) عصى آدم عليهما السلام أمراً مولوياً إرشادياً وليس أمراً مولوياً تكليفيّاً، فالآول حين مخالفته لا يتربّع عليه عقوبة، بينما الثاني يتربّع على مخالفته عقوبة.

بوصفها أمة واحدة، قال تعالى: **﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ فَالْخَتَّافُوا هُنَّ**^(١)

وقد أُنشئ المجتمع الموحد والتوحيد على ركائز،
والأساس الأولي لتلك الوحدة لهذه الركائز (الفطرة)؛
لأن الركائز التي يقوم عليها مجتمع التوحيد وتتمثل أساس
الخلافة على الأرض كلّها ذات جذور في فطرة الإنسان. قال
تعالى: **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلَّدِينِ حَيْنَا فَطَرَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ**
عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيْمُ...﴾^(٢).

فكان من أبرز معالم الفطرة الإنسانية، الإيمان بالله الواحد ورفض كل ألوان الشرك والطاغوت، وبالتالي فإن أي شرك وجبروت، وأي تناقض وتفرق، هو انحراف عن الفطرة. وطبعاً، تُشكّل تلك الفطرة الإنسانية الأساس لإقامة مجتمع التوحيد وممارسة دور الخلافة، وهذا ليس بمعزل عن خط الشهادة الذي كان قائماً إلى جانبه وممثلاً في

(١) سورة يونس، الآية: ١٩.

(٢) سورة الروم، الآية: ٣٠.

الأنبياء ﷺ، حيث كانوا يمارسون - في تلك المرحلة - مهمّة الشهيد الريّاني، مهمّة الهادي والموجّه والرقيب، قال تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَيَعْثَثُ اللَّهُ النَّبِيُّنَ مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحُكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ...»^(١).

نلاحظ في الآية الكريمة أنّ مرحلة بعثة الأنبياء ﷺ ليحكموا بين الناس جاءت عقب المرحلة التي كان الناس فيها أمّة واحدة، تلك المرحلة التي كانت الخلافة والحكم فيها للجامعة البشرية نفسها، وكان خطّ الشهادة للإشراف والتوجيه والتدخل إذا تطلّب الأمر.

وبعبارة أخرى: بعد أنْ مرت على البشرية فترة من الزمن وهي تمارس خلافتها من خلال مجتمع واحد، تحقّقت نبوءة الملائكة، وبدأ يبرز التناقض والتنافس والسيطرة والتملك، فضلاً عن ظهور الفساد وسفك الدماء؛ وذلك لأنّ التجربة الاجتماعية نفسها وممارسة العمل على

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٢.

الأرض، نَمَتْ خُبراتُ الأَفْرَادِ، وَوَسَعَتْ إِمْكَانَاتِهِمْ فَبَرَزَتِ
الْأَلْوَانُ التَّفَاوْتُ بَيْنَ مَوَاهِبِهِمْ وَقَابِلَيَّاتِهِمْ، وَنَجَمَ عَنْ هَذَا
التَّفَاوْتِ اخْتِلَافُ مَوَاقِعِهِمْ عَلَى السَّاحَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ، وَأَتَاهُ
ذَلِكَ فَرَصَ الْاسْتِغْلَالَ لِمَنْ حَظِيَ بِالْمَوْقِعِ الْأَقْوَى. فَإِنْ قَسِمَ
الْمَجَمِعُ بِسَبَبِ ذَلِكَ - إِلَى أَقْوَاءٍ وَضَعَفَاءٍ وَمُتوَسِّطِينَ،
ثُمَّ إِلَى مُسْتَفْلِيِنَ وَمُسْتَضْعَفِيِنَ، لِتَنْقَدَ بِذَلِكَ الْجَمَاعَةُ
وَحْدَهَا الْفَطَرِيَّةُ، وَيَصُدِّقُ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى فِي آيَةٍ تَحْمِلُ
الْإِنْسَانِيَّةَ لِلْأَمَانَةِ الَّتِي أَشْفَقَتْ مِنْهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ
إِذْ قَالَ: **﴿فَوَحَمَلُهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾**^(١).

ثَالِثًا: مرحلة ثورة الأنبياء ﷺ لِإعْامَةِ مجتمع التوحيد:
بعد أنْ غَرَقَ المجتمع التوحيدِيُّ في ألوانِ الاستِغْلَالِ،
وَسَيَطَرَتْ عَلَيْهِ عَلَاقَاتُ اجْتِمَاعِيَّةٍ تُجَسِّدُ هَذِهِ الْأَلْوَانَ،
وَمَشَاعِرٌ نَفْسِيَّةٌ تُبَرِّرُ الْانْحرافَ عَنِ الْفَطَرَةِ، وَأَسَاطِيرٌ
فَكَرِيَّةٌ وَثَنَيَّةٌ تُمْزِقُ الْمَجَمِعَ شَيْعًا وَأَحْزَابًا، كَانَ لَا بُدَّ فِي ظَلَّ

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

هذه الظروف من ثورة تُعيد المسيرة إلى طريقها الصالح، وتبني المجتمع الموحد من جديد على أساس أعمق وأوسعى من أساس الفطرة (أو مرحلة الفطرة من الخلافة)، وتهيئ الجماعة البشرية لاستئناف دورها الرباني في خلافة الله على الأرض.

لذا كانت انطلاقة ثورة الأنبياء عليهم السلام مرتکزة على أساس قوي، تمثل في استئصال المشاعر التي خلفتها ظروف الاستغلال، واعتماد مشاعر أخرى أساساً للثورة؛ بمعنى أنه بعد استئصال الحرص والطمع من نفوس الناس، وتطهيرها، وإعدادها روحياً ونفسياً، يأتي دور زرع مشاعر الإحساس بالقيم الموضوعية للعدل والحق، والقسط، والإيمان بعبودية الإنسان لله تعالى. هذا بالإضافة إلى إلغاء كل العلاقات الاجتماعية التي نشأت على أساس الاستغلال، لا لتنشئ علاقات مماثلة لفئة أخرى من المجتمع، بل لتعيد إلى الجماعة البشرية الشروط الضرورية لممارسة الخلافة العامة على الأرض وتحقيق أهدافها الرشيدة. قال تعالى:

﴿تُلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ
وَلَا فَسَادًا﴾^(١).

ومن هنا دعا الأنبياء - كما ذكرنا فيما سبق - إلى
جهادين:

أحدهما: الجهاد الأكبر (أو جهاد النفس) من أجل أن
يكون المستضعفون أئمة فينتصروا على شهواتهم ويبنوا
أنفسهم بناءً ثوريًا صالحًا.

والآخر: الجهاد الأصغر من أجل إزالة المستغلين
والظالمين عن مواقعهم.

إذًا، النبوة ظاهرة ربانية تمثل رسالة ثورية وعملاً
تغييرياً، وإعداداً ربانياً للجماعة البشرية، لكي تستأنف
دورها الصالح. وتفرض ضرورة هذه الثورة أن يتسلّم
شخص النبيّ الرسول الخلافة العامة لكي يتحقق للثورة
أهدافها في القضاء على الجاهلية والاستغلال، قال تعالى:

(١) سورة القصص، الآية: ٨٢.

﴿وَيَضْعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾^(١) هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يبني القاعدة الثورية الصالحة من خلال إشراك الأمة في أعباء الحكم - على مبدأ الشورى^(٢) - ومسؤوليات الخلافة الربانية، لكي يمن الله عليهم و يجعلهم أئمة و يجعلهم الوارثين، قال تعالى: **﴿فَالَّذِينَ آتَنُوا بِهِ وَعْرَوْهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا التُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**^(٣).

وبذلك يندمج خط الشهادة وخط الخلافة في شخص واحد وهو النبي، لذا اشترط الإسلام في النبي العصمة؛ لأنّه سوف يكون هو الشهيد وهو المشهود عليه في وقت واحد.

رابعاً: مرحلة الإمامة في إكمال بناء مجتمع التوحيد:
إنّ صنع مجتمع التوحيد ليس بالأمر الهين؛ لأنّه ثورة على الجاهلية بكل جذورها، وتطهير للمحتوى النفسي والفكري

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

(٢) قال تعالى: **﴿وَشَاوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزِمتْ فَتَوَكِلْ عَلَى اللَّهِ﴾** (سورة آل عمران، الآية: ١٥٩).

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٧.

للمجتمع من جذور الاستقلال، ومشاعره، وواقعه. ومن هنا كان شوط الثورة أطول من العمر الاعتيادي للرسول القائد، لذا كان لا بدّ للرسول أنْ يترك الثورة في وسط الطريق ليتحقق بالرفيق الأعلى وهي في خضمّ أمواج المعركة بين الحق والباطل.

ومن الواضح أنّ الحفاظ على الثورة - وهي بعدّ لم تتحقّق بصورة نهائية مجتمع التوحيد - يفرض أنْ يمتدّ دور النبيّ في قائد ربّانيّ يمارس خلافة الله على الأرض، وتربية الجماعة وإعدادها، ويكون شهيداً في الوقت نفسه، وهذا القائد الربّانيّ هو الإمام الذي يجب أنْ يكون معصوماً، لأنّه يستقطب الخطّين معاً ويُمارس وفقاً لظروف الثورة خطّ الخلافة إلى جانب خطّ الشهادة معاً.

إذاً الإمام كالنبيّ شهيد وخليفة لله في الأرض من أجل أنْ يواصل الحفاظ على الثورة وتحقيق أهدافها، غير أنّ جزءاً من دور الرسول يكون قد اكتمل، وهو إعطاء الرسالة والتبشير بها، والبدء بالثورة الاجتماعية، قال تعالى: **﴿الْيَوْمَ**

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَّقَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتُ لَكُمْ
الإِسْلَامَ دِينًا^(١).

وعلى هذا الأساس وبأمر من الله تعالى **عَيْنَ أَوْصِيَاءِ اثْنَا عَشَرَ مِنْ أَئِمَّةِ أَهْلِ الْبَيْتِ** ، ليكونوا المؤمنين على الرسالة والثورة التي جاء بها الرسول ﷺ ، لا أن يأتوا بدين جديد أو رسالة خلاف رسالة الإسلام. ويلاحظ في تاريخ العمل الريّاني على الأرض أن الوصاية كانت تُعطى غالباً لأشخاص يرتبطون بالرسول القائد ارتباطاً نسبياً أو لذرّيته وأبنائه، وهذه الظاهرة لم تتفق فقط في أوصياء النبي محمد ﷺ ، بل اتفقت في أوصياء عدد كبير من الرسل، قال الله سبحانه: **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ...**^(٢).

هذا الاختيار النسبي أو القرابي لا يشكل أساساً للتوارث، بل يشكّل عادة الإطار السليم لتربية الوصي، وإعداده للقيام

(١) سورة المائدة، الآية: ٢.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٦.

بدوره الرباني، وأمّا إذا لم يتحقق هذا الإطار وظيفته التربوية، فلا أثر له في حساب السماء، قال الله تعالى: «وَإِذْ أَبْتَلَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّهِ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعَلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمَنْ ذَرَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ»^(١). خامسًا: مرحلة الفقهاء في حماية مجتمع التوحيد:

بالرغم من إبعاد الأئمة عليهم السلام عن مركزهم الطبيعي في الزعامة الإسلامية، حيث تمارس دور الخلافة والشهادة معاً، إلا أنّهم ظلّوا التجسيد الحي والثوري للإسلام، والقوّة الرافضة لكلّ ألوان الانحراف والاستغلال، وقد كلف ذلك الأئمة الأحد عشر عليهم السلام حياتهم الواحد بعد الآخر. هذا الواقع المرير دفع بالإمام الثاني عشر عليه السلام - بأمر من الله تعالى - إلى التواري عن الأنظار، انتظاراً للحظة المناسبة التي تتهيأ فيها الظروف الموضوعية للظهور وإنشاء مجتمع التوحيد في العالم كله.

وما إنْ بدأ عصر الغيبة الكبرى حتى بدأت مرحلة جديدة

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

من خط الشهادة، تمثلت في العلماء والفقهاء كامتداد للنبوة والإمامية على هذا الخط، وتميز في هذه المرحلة خط الشهادة عن خط الخلافة بعد أن كانا مندمجين في شخص النبي أو الإمام؛ وذلك لأن هذا الاندماج لا يصح إسلامياً إلا في حالة وجود فرد معصوم قادر على أن يمارس الخطرين معاً، وحين تخلو الساحة من فرد معصوم فلا يمكن حصر الخطرين في فرد واحد.

نعم، في حال كانت الأمة محكومة للطاغوت ومحبطة عن حقها في الخلافة العامة، فهذا الخط يمارسه المرجع الفقيه ويندمج الخطايا حينئذ - الخلافة والشهادة - في شخص المرجع الفقيه، وبالتالي لا يتوقف الاندماج على العصمة؛ لأن خط الخلافة في هذه الحالة لا يتمثل عملياً إلا في نطاق ضيق وضمن حدود التصرفات الممكنة للمرجع الفقيه وقيادته للأمة حتى تتجاوز أي الأمة. حالة الإقصاء والظلم، وتُحرر نفسها، حينها ينتقل خط الخلافة إليها، فتُمارس القيادة السياسية والاجتماعية من خلال

تطبيق أحكام الله تعالى، وعلى أساس الركائز المتقدمة للاستخلاف الربّاني^(١).

هكذا وُزِّع الإسلام في عصر الغيبة مسؤوليات الخطرين بين المرجع الذي يُمارس دور الاجتهد الشريعي، وبين الأمة التي تُمارس دور الشورى، فلم يشأ الإسلام أنْ تُمارس الأمة خلافتها بدون شهيد يضمن عدم انحرافها، ويُشرف على سلامية المسيرة، ويُحدّد لها معالم الطريق من الناحية الإسلامية، ولم يشأ - أيضاً - من الناحية الأخرى أنْ يحصر الخطرين معاً في فردٍ ما لم يكن هذا الفرد مطلقاً أي معصوماً.

بالنتيجة: إن دور المرجع - شهيداً على الأمة - هو دور ربّاني لا يمكن التخلّي عنه، ودوره في إطار الخلافة العامة للإنسان على الأرض، دور بشرّي اجتماعي يستمدّ قيمته وعمقه من مدى وجود الشخص في الأمة وثقته بقيادته الاجتماعية والسياسية.

(١) ذكرنا هذه الركائز في كتاب «خلافة الإنسان» من هذه السلسلة.

الخلاصة :

أولاً: إن الهدف الأساس لخلافة الإنسان على الأرض، هو الحكم بما أنزل الله سبحانه وتحقيق العدل، والمساواة، والاحترام المتبادل بين الناس. وذلك في مقابل استئصال بؤر الفساد والظلم والاستغلال ومحاربتها.

ثانياً: يعتبر خط الشهادة الركن الثاني في بناء المجتمع التوحيدية. والشهيد بأصنافه الثلاثة (النبي - الإمام - الفقيه) هو بمثابة مرجع فكري وتشريعي من الناحية الإيديولوجية، ويُشرف على سير الجماعة وانسجامها مع الرسالة الربانية، بحيث يتدخل لتعديل المسيرة أو إعادةتها إلى الطريق الصحيح حينما تحرف.

ثالثاً: تقوم النظرية القرآنية على أساس أن البشرية كانت أمة واحدة تمارس دور الخلافة، وذلك إلى جانب شهادة الأنبياء والرسل ﷺ، وإشرافهم على مسار خلافة الأمة، إلا أن انقسام المجتمع إلى شيع وأحزاب تطلب الأمر الإلهي أن يدمج بين خطى الخلافة والشهادة في شخص

النبي وَمَنْ ثُمَّ وَلَوْصِيٌّ مِنْ بَعْدِهِ، وَاسْتَمْرَّ هَذَا الْأَمْرُ مَعَ الْفَقِيهِ
الْمَرْجُعِ ضَمِّنَ نَظَامِ صَلَاحِيَّاتِهِ التَّشْرِيعِيَّةِ، حَتَّى تَخْرُجَ
الْأَمْمَةُ مِنْ تَحْتِ ظُلْمِ الطُّفَاهَةِ وَاسْتِبْدَادِهِمْ، حِينَهَا يَعُودُ حَقُّ
الْخَلْفَةِ لِلْأَمْمَةِ.

الفهرس

المقدمة ٥
مفهوم خط الشهادة في القرآن: ٩
أصناف الشهادة: ١٠
الفارق بين الأصناف الثلاثة في أداء دور الشهادة: ١٢
الاندماج بين خطى الخليفة والشهادة: ١٥
الخلاصة: ٣٠